

# الدراسات التراثية

(الدراسات التراثية بين العلم والمرجعيات الفكرية)

(١)

د. أحمد الأصفر  
د. أمل حمدي دكاك

قسم علم الاجتماع  
كلية الآداب والعلوم الإنسانية

# موضوعات البحث التراثي

يشكل موضوع الدراسة في مجال التراث موضع خلاف  
بحثي دائم بين المعنيين به، سواء أكان الموضوع نصا، أو مادة،  
أو حادثة تاريخية، أو أي معلم من معالم التراث الحضاري  
للأمة، فإذا كانت موضوعات التراث عديدة بتعدد أوجه  
النشاط الاجتماعي والاقتصادي والسياسي للأمة، فإن التنوع  
في تناول الموضوع التراثي أكثر وضوحا، وهو واحد من  
مشكلات البحث التراثي.

• فقد يكون موضوع البحث التراثي نصا، في الأدب، والشعر والموسيقا، والفلسفة والفقه والقانون وغير ذلك من النصوص التي تحملها الكتب التي تم إنجازها في الماضي على نحو من الأنحاء، كأن يتناول الباحث بالتحليل كتاب ألف ليلة وليلة، أو رسالة الغفران لأبي العلاء المعري، أو شعر المتنبي، أو المعلقات العشر وغيرها من النصوص ذات القيمة التراثية الكبيرة.

- وقد يكون موضوع البحث التراثي حادثة تاريخية، كما هو حال الدراسات التراثية ذات الصلة بالتاريخ الاجتماعي لمكونات المجتمع الراهن، كأن يبحث السوريون مثلاً بالتاريخ الكنعاني، أو الآرامي، أو الآشوري، أو الفينيقي أو الكردي، أو الإسلامي وغيرها مما تركته الحضارة السورية عبر ماضيها البعيد، من حضارات مازال تراثها حياً في الوعي الاجتماعي السائد بأشكال مختلفة.

- ويمكن أن يكون موضوع الدراسة قضية اجتماعية أو سياسية أو اقتصادية سبق أن عاشها المجتمع، وكان لها تبعات وشجون معنوية ووجدانية، ولها من يدافع عنها، أو يحاربها، كما هو الحال في قضية الثأر مثلاً، أو توريث المرأة، أو مكانة المرأة، أو تعدد الزوجات، على أن تكون الدراسة ذات صلة بماضي الأمة، أو بماضي الأمة وصلته بالحاضر، فكل هذه الموضوعات يمكن أن تكون موضوعاً للبحث التراثي.

- وقد يتناول البحث التراث مسألة اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية محددة، كأن يبحث في واحدة من عادات المجتمع وتقاليده وقيمه وأفكاره، ومثاله عادات الطعام وعادات المآكل والمشرب وعادات الأفراح والأتراح التي كان يعيشها المجتمع في مرحلة زمنية ما، وما زالت باقية في وعي الأبناء، ومثال ذلك أيضا ما له صلة بأشكال التنظيم الاجتماعي لأوجه الحياة المختلفة في تعاملها مع التحديات التي تواجه المجتمع وتحدد مكوناته، وغير ذلك من الموضوعات.

- كما تشمل الدراسات التراثية أيضا الموضوعات ذات الصلة بالفكر، كما هو الحديث مثلا في موضوع القضاء والقدر لدى المعتزلة مثلا، أو وحدة الوجود عند ابن عربي، أو الفلسفة الإشراقية لدى السهروردي، وغير ذلك من الموضوعات العديدة.



**الأطر المحددة لمراجعيات التفكير لدى الباحثين**

# الإطار المرجعي للحكم على الأشياء لدى الباحث



إطار زماني محدد



إطار مكاني محدد



المنبت الاجتماعي



الارتباط المصالح



مجالات الإدراك



- (المكان الذي ينتمي إليه) لا يمكن تصور فرد أو باحث ولد بلا مكان، مما يجعل ارتباطه بالأمكنة متباينا وقيمتها بالنسبة إليه مختلفة ومتنوعة، كما أن الفرد الواحد والباحث الواحد عاش في حيز مكاني لا يستطيع تجاهل آثاره في شخصيته، فمن ولد في مدينة لا بد أن تصبح لديه مشاعر وأحاسيس محددة عن هذه المدينة بالإيجاب أو السلب، ومن عاش في مدينة أيضا ارتبط معها وجدانيا وعاطفيا وأخلاقيا، مما يجعل الفرد غير قادر على الانفصال عن المكان الذي ولد فيه أو المكان الذي عاش فيه.

- (الزمان الذي يعيش فيه)، وكما أن الفرد يرتبط بالمكان فإنه يرتبط بالزمن أيضا، فمن شاءت الأقدار أن كانت ولادته في السبعينيات من القرن العشرين لا يمكن أن تتطابق مشاعره وأحاسيسه مع من كانت ولادته في الأربعينيات أو الخمسينيات في القرن العشرين، ولا مع من جاءت ولادته فيما، فمن حيث النتيجة يلقي الزمن بظلاله على الشخصية الإنسانية ويجعل لها طابعا خاصا.

- (تقاطع الزمان والمكان)، ذلك أن شخصية الفرد وهويته غالبا ما ترتبط بسلسلة تقاطعات الزمان مع المكان، فمواليد دمشق (وحدة المكان) على امتداد التاريخ لا يتشابهون، ولكنهم يتقاربون كلما تقارب الزمن بينهم، وكذلك الحال مواليد التسعينيات من القرن العشرين في العالم (على مستوى الزمن).

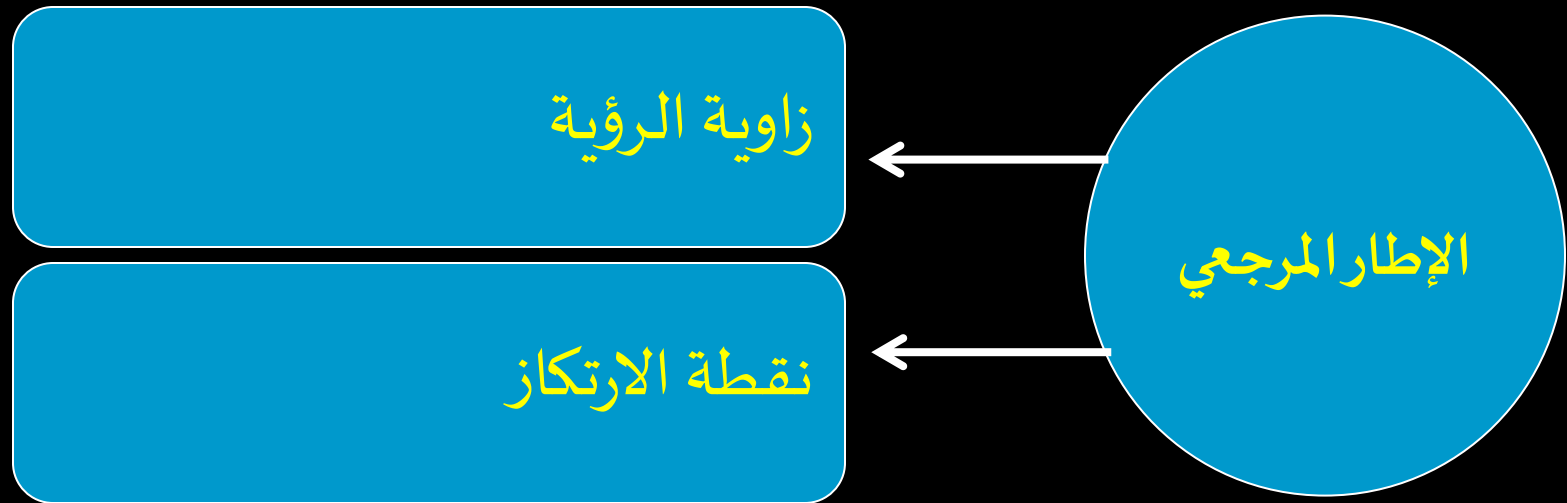
- (المنبت الاجتماعي) يتموضع كل باحث معني بالتراث في موقع اجتماعي ليس باختياره، فهو دائما ابن طبقة اجتماعية بعينها، وابن انتماء أثني وعرقي وديني محدد، بل وابن بيئة مكانية ولد فيها وعاش في ظروفها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وغالبا ما يؤدي هذا المنبت إلى تكوين مشاعر وأحاسيس وعواطف إنسانية وجدانية لا يستطيع التخلي عنها بوجه من الوجوه، وتصبح هذه المشاعر والأحاسيس جزءا لا يتجزأ من شخصيته وهويته الاجتماعية والثقافية والسياسية.

- (الارتباط بالمصالح)، إن الاهتمام بالقضايا التراثية يحمل في مضمونه منافع ومصالح مختلفة بالنسبة للمعنيين بها، فقد تكون هذه المصالح مادية نفعية بالدرجة الأولى، وقد تكون فكرية عقائدية، وقد تكون سياسية، مما يجعل الباحث يميل من حيث لا يدري إلى توظيف دراسته للمنافع المشار إليها بوعي منه أو بدون وعي.

- (المجال الإدراكي)، لكل فرد من أفراد المجتمع، ولكل باحث من الباحثين في مجال التراث وفي غيره من المجالات مجال إدراكي محدد يستطيع من خلاله رؤية الأشياء ومعرفة حيويتها وتفصيلها، ويختلف الناس في مستويات مجاهم الإدراكي كما يختلفون في قدراتهم البصرية والسمعية والذوقية وغيرها، ولهذا من الطبيعي أن يختلف الباحثون في مستويات وعيهم بأهمية الموضوع التراثي وأهميته وضرورته.

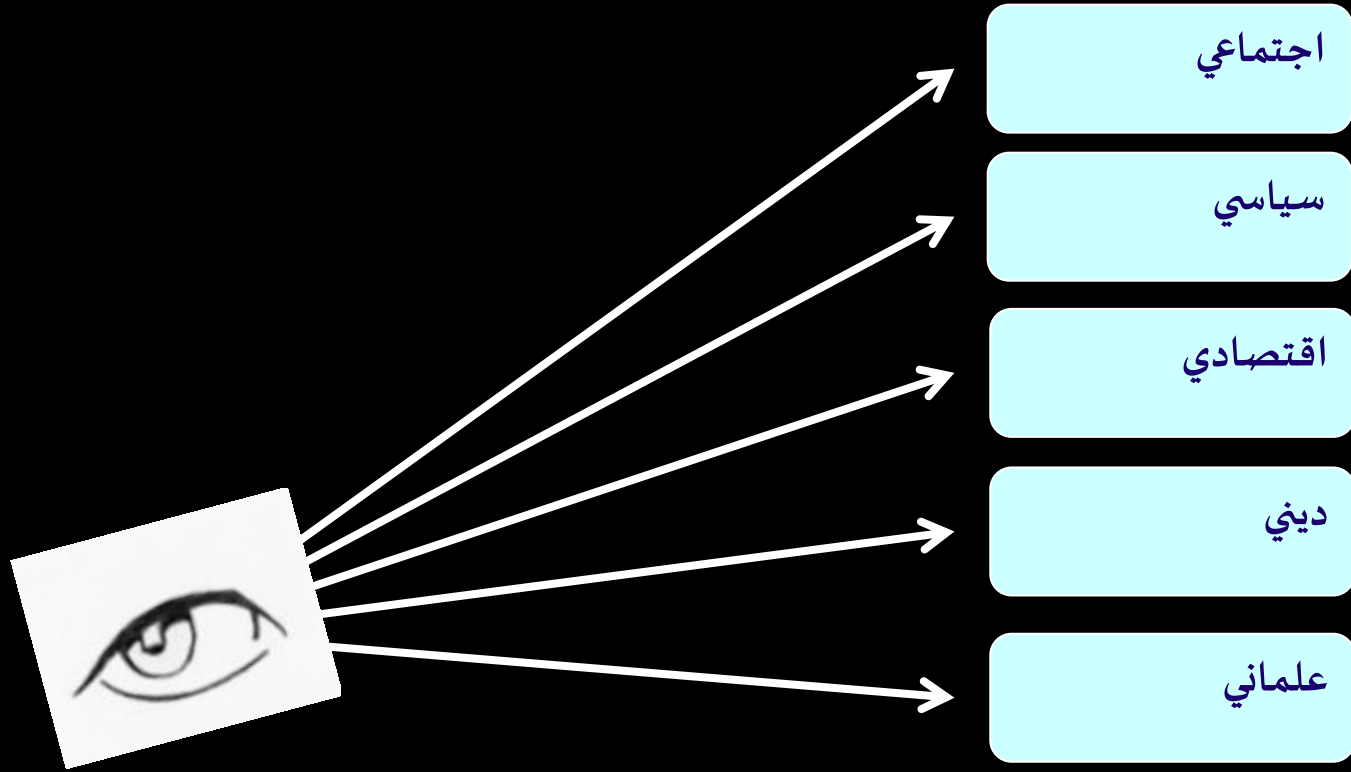


- (الاستقطاب) ويراد به أن الباحث يصبح في لحظة من لحظات اندماجه بالمجتمع جزءا من المنظومة الاجتماعية التي يعيش فيها، فيتمثل في وعيه أحكامها ومعاييرها وطرق التفكير السائدة بين أبنائها، فالجمال ما ألفته عينه من تناسق بين مكونات بيئته التي عاش فيها، والعدالة ما استقرت عليه الجماعة في أشكال توزيع الخيرات بين أبنائها، والحرية ما تسمح به الجماعة من قول أو فعل،

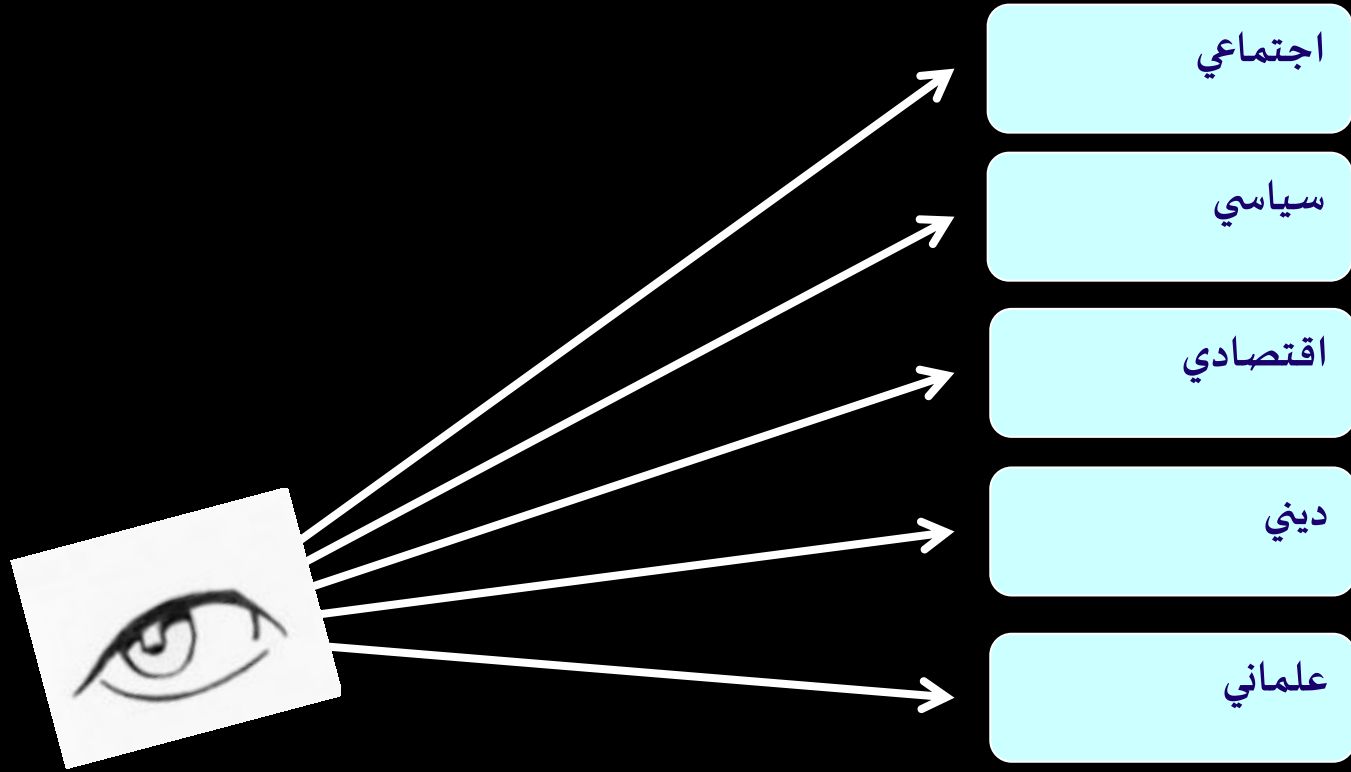


يحدد الإطار المرجعي للإنسان طريقة تعامله مع الأشياء في ضوء  
اعتبارين أساسيين هما:

- زاوية الرؤية التي ينظر من خلالها للأشياء المحيطة به
- نقطة ارتكاز يعتمد عليها في الرؤية



فلكل قضية تراثية بعد أساسي، فقد تكون القضية اجتماعية، وقد تكون سياسية، وقد تكون اقتصادية وغيرها... ولكنها تختلف من منظور الباحثين فقد تكون القضية سياسيا بالنسبة إلى بعضهم، واجتماعية بالنسبة لبعضهم الآخر واقتصادية بالنسبة لفريق ثالث، وقد تكون ثقافية بالنسبة لفريق رابع وهكذا...

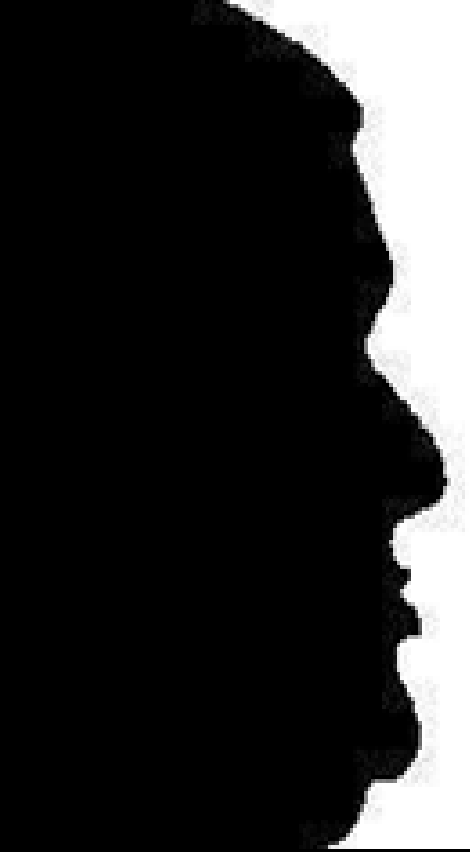


فالمسألة السورية اليوم سياسية بالدرجة الأولى بالنسبة لعدد كبير من السوريين، ولكنها اقتصادية بالنسبة لفريق ثاني، ودينية بالنسبة لفريق ثالث، وطائفية بالنسبة لفريق رابع، وقد تكون غير ذلك بالنسبة لفرقاء آخرين...

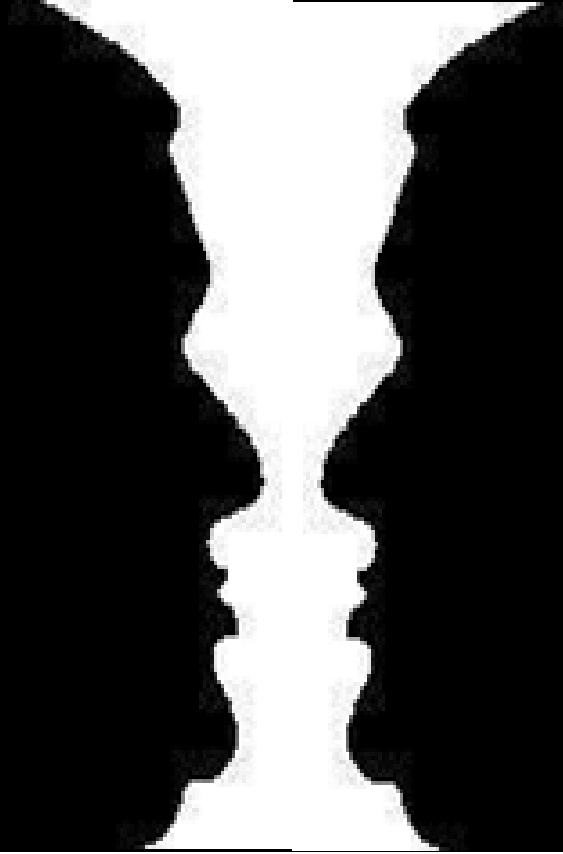
ويدعو ذلك إلى ضرورة التمييز بين الرؤية الجزئية للقضية  
الواحدة وبين رؤيتها من منظور كلي



من منظور جزئي، في هذا الشكل صورة لوجه رجل ينظر إلى اليسار

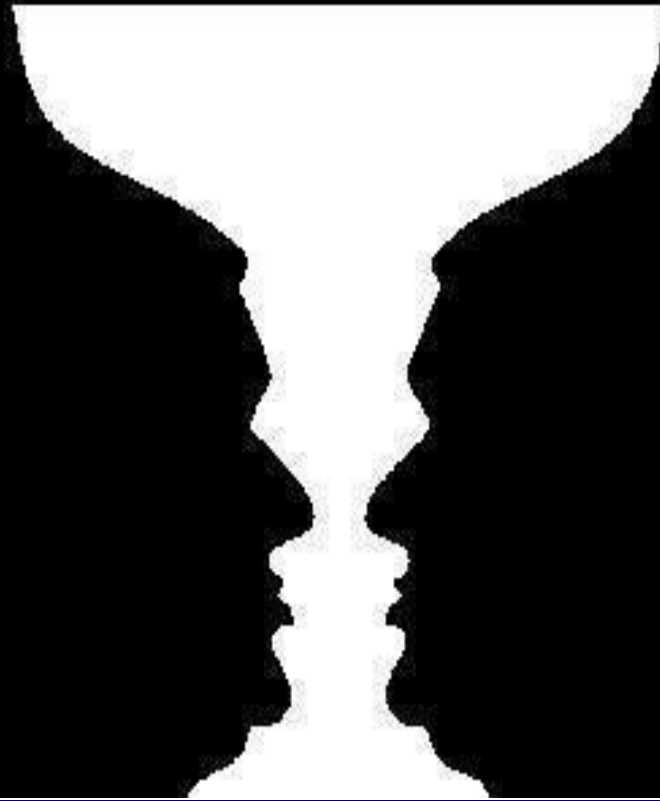


وفي هذا الشكل صورة لوجه رجل ينظر إلى اليمين



وفي هذا الشكل صورة للوجهين المتقابلين





أما من منظور الرؤية الكلية فيمكن أن يرى بعضهم في الشكل صورة مختلفة تماما،  
هي صورة لكأس..

- ومن يرى في الشكل صورة لوجهين متقابلين لا يرى صورة الكأس.
- ومن يرى صورة الكأس لا يرى صورة الوجهين المتقابلين



- إمكانية رؤية المشهد الواحد من منظورين متناقضين وما أن تسيطر على الفرد رؤية الصورة من منظور حتى يصعب عليه رؤيتها من منظور آخر
- فمن يرى في الشكل صورة للمرأة العجوز لا يستطيع رؤية صورة الفتاة
  - ومن يرى في الشكل صورة الفتاة لا يستطيع رؤية صورة العجوز

وتقود هذه المشكلة إلى مشكلة أخرى تتمثل في ضرورة  
التمييز بين الحكم على الأشياء في ذاتها والحكم عليها في  
سياقها

الحكم على الأشياء في ذاتها يتم من خلال عناصر النموذج أو عناصر  
المرجعية نفسها، ذلك أن المرجعية الفكرية تسبغ على مكوناتها  
طابعا منطقيا متكاملا سرعان ما يلمسه أي فرد من أفرادها، في كل  
الأشياء المحيطة به من منظورها، وحتى في الأشياء الخارجة عن بيئته  
وثقافته، فتنج المعايير والأحكام والقيم التي يعتمد عليها في حياته عموما  
وتصبح جزءا من شخصيته، ويصعب خروجه عنها

أما الحكم على الأشياء في سياقها، فهو الحكم الذي يحاول الانطلاق من زوايا للرؤية مختلفة عن تلك التي اعتاد عليها الفرد، ويعتمد نقاط ارتكاز أخرى يمكن معرفتها من خلال الثقافات الأخرى، فكل ما هو مسلّم به في ثقافته يصبح موضع نقد ومناقشه في ثقافة أخرى، وحتى ما هو مسلّم به في الثقافات الأخرى أيضا، فيأخذ بالحكم على الأشياء من خلال المقارنة والموازنة بين زوايا الرؤية المختلفة، مما يجعل ما هو مستقر وثابت من منظور معين متغيرا من منظور آخر، فيأتي الحكم على الأشياء مبنيًا على أساس المقارنة بين الأطر المرجعية التي يعتمدها الفكر، وليس على أساس أطار مرجعي محدد

وفي ضوء هذه التصورات تصبح دراسة المادة التراثية على درجة كبيرة من التعقيد، فالوصول إلى المعرفة التي يتطلع إليها الباحث العلمي توجب عليه أن يسمو بنفسه على المشاعر والأحاسيس والعواطف التي تشده إلى البيئة الحاضنة وتدفع به إلى الدفاع عنها وإسباغ الطابع العلمي والمنطقي على الظواهر المرتبطة بها، في الوقت الذي لا يستطيع الباحث فيه تحرير نفسه من هذه الارتباطات، مما يجعل معرفته مشوهة في أغلب الأحيان، ومبنية على أساس الدفاع عن منبته الاجتماعي لما لهذا المنبت من ارتباط وثيق بشخصية الباحث، حتى أنه يصبح جزءاً منها.

إن عملية الاستخدام الصحيح للمادة التراثية لما يفيد المجتمع  
توجب على الباحث فهمها فهما موضوعيا، مما يدعو إلى ضرورة  
التمييز بين منهجية البحث في التراث، وبين الغايات التي يتوخاها  
الباحث، والاستخدامات التي يتطلع إليها، فأن يكون صادقا مع  
نفسه سعيا لتحقيق فهم موضوعي يؤدي إلى إمكانية استخدام المادة  
التراثية فيما بعد، ضرورة أساسية من ضرورات الباحث العلمي عامة،  
والباحث العلمي في مجال التراث خاصة، فالإخلاص للمريض والوفاء  
له لا يأتي من سيطرة المشاعر والأحاسيس والعواطف، إنما من  
التشخيص الموضوعي ومن ثم الاستخدام المناسب.

وشكرا لحسن إصغائكم.